الفصل الخامس

حكام الطوائف

- ابن جهور في قرطبة.
- بني العباد في إشبيلية.
- المعتمد بن عباد.

obeikandl.com

obeikandl.com

حـكام الطـوائــف

عندمـا وهنـت الخلافة الأمويـة، استأسـد كل حاكم ولايـة وأعد العـدة لامتلاك ما تحت يده، وبعد أن سـقطت الخلافة الأموية انفرط عقد الدولة وتقاسـم العرب والبربر والصـقالبة أوصـال الأندلس، فانقسـمت إلى دويلات زادت عن العشرين، ومن أشهرها دولـة بني جهور بقرطبة، ودولة بني عباد في إشـبيلية، ودولـة بني الأفطس في بطليموس، ودولة بني ذي النون في طليطلة، ودولة بني حمود في مالقة، ودولة بني هود في سرقسطه، ودولة بني سناد في غرناطة، ودولة الفتيان الصقالبة في بلنسية ومرسية ودانيه والمرية.

وقـد أفردت ذكراً منفصـلاً عن بني جهور وبني عباد، وتحدثـت عن بعض الدويلات الأخرى في ثنايا الكتاب بما يسـتدعيه السياق، وقد جلب حكام هذه الدويلات من المآسي أجَلَّها، ومن المصـائب أشـنعها، وكان أكبر فتنة اقترفوها الاسـتعانة بالنصارى للاقتتال فيما بينهم، والخنوع في دفع المكوس والضـرائب لجيرانهم في الشـمال، طمعاً في التغلب على أرض ومال، ومحظيات ونوال، اقتطعها كل منهم بعد انهيار العهد الأموي.

كان المجتمـع الأندلسـي في عصـرهم يعيش في بؤس وفقر وخوف دائـم من قبل ولي أمرهم أو من غزو المنافس له، كان عليهم أن يدفعوا الكثير من المكوس والضرائب لينعم هؤلاء الحكام بالانغماس في ملذاتهم، وليقضـوا به شـهواتهم، هذا بعـد أن يتم دفع جُلِّه للواقف على رؤوسهم والمتربص بهم، يدفعونه عن يدٍ وهم صاغرون.

ولابـد لشـاعرهم وأديبهم وحتـى فقيههم أن ينافقهـم فيما يفعلـون، وبمالأهم فيما يأتون لينال شـيئاً من العطايا يتفضـل بها أصـحاب القصـور الباذخة من هؤلاء الولاة، قال ابن حيان واصـفاً الحال: «وكانت طوائف الروم، مدة ملوك الطوائف بأفقنا قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتيال، واسـتنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودَأْبُ النصـارى التسـلط والعناد، حتى اسـطفوا الطريـف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن تلفاً، بما كانوا ضـربوا على أنفسـهم من الضـريبة، وإلى ما يتبعها من هديات ونفقات»، وشِـعْرُ العصـرِ شـاهد بالأمر كقول حسان بن المصـيص بمدح المعتمد يهوِّنُ عليه تلك الأتاوات من جملة أبيات:

تحيَّلُ في فكِّ الأسارى وإنما تُعاقِدُ كفاراً لتطلق مسلما
وماكنت ممن شح بالمال والقنا فتكنز ديناراً وتركز لهذما
فترسله للصفر أصغر عسجد وإن خالفوا أرسلت أبيض مخذما
ولو تطو دون المسلمين ذخيرة تهين كريم المُنفسات لِتُكْرِما

ونورد موقفاً للشاعر أبي بكر الدائن، يبرر فيه دفع المعتمد بن عباد الجزية للنصارى، ويخرج له التأويل، ويبحث له عن تعليل، فيقول: إن ما تدفعه لهم ليس سوى خدعة لهم حتى يأكلوا ويشربوا فتمتلأ بطونهم فيصيبهم الضرر من الشبع، فأنت الأدرى بما تأتي وما تدع.

قال منشداً أمام المعتمد بن عباد:

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فَتَنْخَدِعُ
تبيعهم نعماً في طيِّها نقمٌ سيستضر بها من كان ينتفع
وقلَّما تسلمُ الأجسامُ من عرضٍ إذا توالى عليها الري والشبع
لا تخبط الناس عشوا عند مشكلة فأنت أدرى بما تأتي وما تدع

وقال ابن بسام بعد أن أورد هذه الأبيات: «وهذا مدح غرور، وشاهد زور، وملق معتف سائل، وخديعة طالب نائل، وهيهات، بل حلَّت الفاقرة بجماعتهم».

حين أيقن النصارى بضعف المُنَن، وقوت أطماعهم بافتتاح المدن، واضطرمت في كل مكان جهة نارهم، وروت من المسلمين أسنة شفارهم، ومن أخطأه القتل منهم فإنما هو بأيديهم سبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، حتى دنوا مما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب».

ومن الإنصاف القول إن بعضاً منهم لاسيما أبو الحزم ابن جهور، قد هدأ بعد روع، وآمن بعد خوف، فكان خير أولئك في فترة حالكة.

obeikandl.com

ابن جهور في قرطبة

قرطبة عاصمة المسلمين في الأندلس وقاعدة حكمهم، ولهذا فقد نالت نصيب الأسد من المآسي التي حلت بالأندلس، وحلَّ الخراب بالحرث والنسل والعمران، فقطعت أشجارها، وأحرقت دورها مرات عديدة، كما سويت بعض ضواحيها بالأرض مثل الزهراء والزاهرة، وفُقِدَ الكثيرُ من أنجب الرجال، وسُبي بها أشرف النساء، وقد خلع آخر خلفاء بني أمية الخليفة المستكفي بالله، ورجع الأمر إلى يحيى بن علي الحسني، ثم انقطعت دعوته وخوت قرطبة من الخلافة والقيادة، فأجمع أهل قرطبة ردَّ الخلافة على بني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن أبي عبدة، كان جده الأبعد مولى لعبدالملك بن مروان، وقد قضى على كل من كان ينافس في الرئاسة، إما قتلاً في أثناء الفتنة، أو حتفاً رغم أنفه، فانبرى للأمر جهور بن محمد بن جهور، فراسل الثغور استئناساً بالرأي، فاتفقوا على تولية هشام بن محمد بن عبدالملك الناصري وأمه أم ولد اسمها «عاتب»، لكنَّ هذا الخليفة المسكين خلع بعد مدة يسيرة، خلعه الجند، فانقطعت بهذا الدعوة الأموية، فعاد الأمر إلى جهور، وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرئاسة، موصوفاً بالدهاء والعقل، لم يدخل في أمور الفتنة قبل ذلك، وكان يتصاون عنها، فلمَّا خلا له الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها، واستضلع بحمايتها، ولم ينتقل على رتبة الإمارة ظاهراً بل دبرها تدبيراً لم يُسْبَقْ إليه، وجعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء مستحق يثق به فيسلم إليه، كما ذكر ذلك ابن حزم.

وعلينا أن نتذكر أنه قد تولى الوزارة لعلي بن حمود الحسني مؤسس الدولة الحمودية، وقد نقم عليه واعتقله وصادر أمواله، فلما ثار أهل قرطبة ببني حمود وأنصارهم من البربر، كان أبو الحزم بن جهور رأس رمح تلك الثورة، وربما قرر في غير إيضاح أن يصطفي الأمر لنفسه عندما تكون الفرصة مناسبة فكان ما كان.

وأبو الحزم بن جهور، لم يتسم بخلافة أو إمارة، ولم يغير من حاله، بل سار كما في سابق عهده عميداً للجماعة يستشيرهم في الأمور الجسيمة، ويتعذر من كل طالب نوال بأن الأمر بيد الجماعة، وأن ليس له حق في مال أو إمضاء.

وقد رتب الأمور فأحسن، ودبر الحكم فأجاد، فبقيت دولته مآل الهاربين من حكام الأقاليم، ومأمن الخائفين من الظالمين، فكان خير حاكم لها بعد فترة من الفتن المتلاحقة.

وحري بنا أن نذكر موقفاً يدل على دهائه، فقد أعلن بنو حمود أعداؤه وأعداء ابن عباد في إشبيلية أنهم أصحاب الحق، فزعيمهم يحيى بن علي بن حمود «المعتلي» سبق أن توشح بثوب الخلافة وبويع له بها ثم خلع عنوة، وكان هذا مطلب يصل إلى أفئدة الناس، لأنهم يرون أنَّ من العدل والدين الانطواء تحت لواء خليفة موجود طالما لا يوجد خليفة بديل، فهبَّ القاضي ابن عباد وادعى كذباً أنَّ هشام المؤيد موجود لديه، وأنه ليس سوى حاجب يأتمر بأمره، وسبحان الله، فها نحن نرى هشاماً المؤيد المحتجز عليه دائماً يتكرر موته وتتكرر حياته لأغراض ومرام التشبث بالسلطة.

لقد أيد أبو الحزم بن جهور في قرطبة صاحبه ابن عباد في إشبيلية هذه الفرية مع يقينه أنها كذب بواح، وفرية تُحقَّقُ بها غاية، كما قيل إن أبا الحزم قد اصطنع شهادات لهذا وأنه ندم بعد ذلك.

استمر حكم أبي الحزم ابن جهور الجماعي اثني عشر عاماً، كان فيها عفيفاً، بعيداً عن اللهو، عادلاً مدبراً، لم يظهر قط مظاهر إمارة أو حكم، فخلت قرطبة من المآسي مدة عهده، لكن كان عهده بداية لترسيخ حكم الطوائف.

وبعد وفاته تولى حكم قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور وسار على نهج أبيه في بداية عهده، وقرَّب إليه أبا الوليد بن زيدون وعهد إليه بالسفارة بينه وبين رؤساء الأندلس لعظيم دهائه وحنكته وقوة حجته، فلمع في منصبه واشتهر ببارع رسائله ومحاوراته، وفي أحد سفاراته التي أنيط بها عنَّ له مطلب بحضرة إدريس بن علي الحسني بمالقة، فأطال الثواء هنالك، واقترب من إدريس فخفَّ على نفسه وأحضره مجالس أنسه، فعتب عليه أبو الوليد بن جهور وصرفه عن ذلك التصريف قبل قفوله، ثم عاد إلى جميل رأيه فيه، وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة.

وهناك من يقول إن ابن زيدون الشاعر السياسي كانت له يد في الفتنة التي قضت على الدولة الأموية وأحلت بدلاً عنها الدولة الجهورية في قرطبة وأنَّه رأس الفتنة الطائفية.

قال أبو مروان: وكان أبو الوليد «ابن زيدون» من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام الجماعة والفتنه، وفَرَعَ أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، فذهب به العجب كل مذهب، وهوَّن عنده كل مطلب، وكان علقه من عبدالله بن أحمد المكوي، أحد حكام قرطبة، ظفر أحجَنُ أدَّاه إلى السجن، فألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم، فتشفع له وانتشله من نكبته، وصيره في ضائعته، ولما ولي الأمر بعد والده، نوَّه به وأنسى خطته، وقدمه في الذين اصطنعهم لدولته، وأوسع راتبه، وجلله كرامة لم تقنعه.

والخلاصة أنَّ هذا الشاعر العظيم، والسياسي الماهر، اتهم من قبل حساده بأنه يروم تغيير الحكم بقرطبة لفرط طموحه، فكان ما كان، وذهب ابن زيدون من قرطبة إلى إشبيلية، فكان سقوط قرطبة في يد المعتمد صاحب إشبيلية على يده كما سيأتي لاحقاً. ندع ابن زيدون لنعود إلى أحوال قرطبة فنقول:

بعد مدة من الزمن، كبر أبناء أبي الوليد بن جهور ومنهم عبدالملك، فقدمه على الناس ولم تكن سيرته مماثلة لسيرة أبيه وجده، فخالفهما مخالفة جعلت النفوس عنه تميل، والعقول عن ولائه تحول، وتسمى بذي السيادتين المنصور بالله الظافر بفضل الله، وخطب له على المنابر خلافاً لما كان من أبيه وجده من البعد عن المظاهر والبذخ، وكان ابن السقاء وزير ذلك العهد، سديد الرأي، حسن التدبير، وأراد ابن عباد حاكم إشبيلية التخلص منه فسعى لدى عبدالملك في حقه، وربما يكون لابن زيدون يد في ذلك، فقتل الوزير في كمين.

وقد احتدم التنافس بين أبناء أبي الوليد، أعني عبدالملك المقرب من قلب أبيه بالرغم من أنه الأصغر سناً وبين عبدالرحمن الأكبر سناً الذي يرى أنه أحق بالأمر من أخيه.

وإذا الفتى فقد الشباب سما له حبُّ البنين ولا كحب الأصغر

وأبو الوليد محمد بن جهور أسير منزله لشلل أصابه، فما لبث عبدالملك أن أطاح بأخيه وأودعه السجن، فرأى حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون أنَّ الوقت مناسب للهجوم على قرطبة وضمها إلى ما تحت يده، فلما علم عبدالملك بالأمر، استغاث بالمعتمد بن

عباد حاكم إشبيلية بعد وفاة أبيه، فقدم بجيشه قاصداً قرطبة، فدارت معركة انتصر فيها جيش الحليفين عبدالملك بن جهور والمعتمد بن عباد. وعاد جيش يحيى بن ذي النون إلى طليطلة، وسار الجيشان الحليفان إلى قرطبة، وودعا عبدالملك بن جهور، ثم التفا معاً ودخل جيش ابن عباد قرطبة بمعاونة جيش عبدالملك بن جهور في خدعة تم تدبيرها وأمر دبر بليل بين قائدي الجيشين، فطلب الأمان، ورحل مع أخيه ووالده إلى مدينة شلطبش.

وهناك من يقول إنَّ أبا الوليد بن زيدون كان لها فاعلاً، وبدهائه مدبراً، ولمكانته عند أهل قرطبة مستغلاً.

وتوفي أبو الوليد بن جهور بعد أربعين يوماً من إزاحته، وبهذا تنتهي دولة بني جهور، وتكبر دولة بني عباد.

قال الشاعر:

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام ممن تصيدا

obeikandl.com

بني عباد في إشبيلية

هم عرب أقحاح يعودون في نسبهم إلى لخم من أهل العريش بمصر، دخل جدهم الأعلى في طالعة بلج بن بشر القشيري، وقد اختلف شيخا المؤرخين ابن حيان وابن بسام في وصف دولة بني عباد طبقاً لظروف كل منهما، فابن حيان معاصر لها، بينما ابن بسام عاش بعدها بقليل؛ ولذا نجد أنَّ ابن حيان أكثر مواربة ربما خوفاً من غائلة، أو طلباً لنائلة، في الوقت الذي كان فيه ابن بسام متحرراً من قيود المعاصرة التي قد تحدو به إلى المصانعة.

وبدأ شأن آل عباد بجدهم القاضي إسماعيل بن عباد، وكان ينفق من ماله وغلاَّته الخاصة، ولم يجمع درهماً قط من مال سلطان ولا خَدَمه، وكان معلوماً بوفور العقل، وسيوغ العلم، والركانة، مع الدهاء وبعد النظر وإصابة الفرصة.

كانت الفتنة في قرطبة قائمة، وكان إسماعيل بن عباد قاضي إشبيلية يجمع حبوب العقد في يده منتظراً نسجها عندما يئين الأوان، بعد أن يتيقن بزوال الخلافة، وتفرُّق الجماعة، وكان ورعاً خيراً بعيداً عن الخنى قريباً من الجلَّى، تولى الشرطة في زمان هشام المؤيد، ثم القضاء، وكان ثريّاً ثراءً لا يجاريه فيه غيره، ومع ثرائه كان سخياً نبيلاً، وقد ساعده المال في التحضير، والدهاء في التدبير، والعلم في المهابة وحسن التفكير، وبعد أن كفَّ بصره، ووهن جسمه، ندب ابنه محمداً ليشغل مكانه في القضاء، فوافق القاسم بن حمود حاكم إشبيلية على توليته القضاء بعد وفاة أبيه إسماعيل، وبعد ذهاب القاسم بن حمود إلى قرطبة لتولي الخلافة هناك وكان يلقب بالمستعلي، خلا الجو لمحمد بن عباد، فاختار رؤساء إشبيلية ثلاثة نفر جعلوا لهم أمر مدينتهم فأحسنوا التدبير، وأكملوا التصريف، وبعد أن خلع القاسم بن حمود عندما ثار عليه أهل قرطبة عاد إلى إشبيلية، لكن محمد بن عباد ومن معه أوصدوا الأبواب عنه ودفعوا بأبنائه إليه واتفقوا معه على إعطائه المال شرط عدم دخوله إشبيلية على أن يُخْطَبَ له في الخلافة.

وبهذا انفرد محمد بن عباد برئاسة إشبيلية، وهنا تبدأ المآسي الأندلسية في عهد الطوائف بالصراع المرير الذي انتهى إلى ما انتهى إليه.

وكانت أول راية حرب يرفعها محمد بن عباد ضد بني الأفطس حكام بطليموس القاطنين في شمال إشبيلية، وكان حاكم قرمونة يشترك مع محمد بن عباد في خشية آل حمود، لكنهم اتحدوا واتجهوا لقتال ابن الأفطس متنافسين معه على مدينة باجة.

والراية الحربية الأخرى كانت ضد بني الأفطس مرة أخرى، حيث ظن محمد بن عباد أنه قادر على سحقهم فأرسل ولده إسماعيل على رأس جيش كبير، فكانت الدائرة على محمد بن عباد، وقتل ابنه إسماعيل وقتل معه جمع من المسلمين بأيدي مسلمين، لتضاف مأساة جديدة إلى مآسي عصر الطوائف.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ محمد بن عباد هو أول من ابتدع رجعة هشام المؤيد الثالثة، فزعم أنه أفلت من يد الخليفة سليمان المستعين ولم يمت، وأنه ذهب إلى المشرق وعاد، فدبت تلك المقولة المزعومة دبيب النار في الفحم، وأشخصوا الرسل للوقوف على عين هشام وتثبيت الشهادة فيه، وزوَّر ابن جهور وغيره في ذلك شهادات على علم منهم ابتغاء عرض الدنيا وإذعاناً من ابن جهور أيضاً لما رآه من دفع ابن حمود الفاغر فاه على حضرة قرطبة، ثم أعلن موته بعد استتباب أمره، فكانت الميتة الثالثة لحامل هذا الإسم، وعساها تكون إن شاء الله الصادقة، فكم قتل وكم مات، وكم انتفض من التراب ومزَّق الكفن قبل نفخة الصور ووقعة الواقعة.

كان القاضي محمد بن عباد، زاخر العباب، متألق الشهاب، أدهى من أتهم وأنجد، يأخذ وكأنه يدع، ويطير فيحسب أنه وقع، وهو شاعر وأديب، وشعره يدل على طموحه وشغفه بالمال والجاه، مع ورعه وتقواه، فقال:

ولا بد يوماً أن أسود على الورى ... ولو ردَّ عمرو للزمان وعامرُ
فما المجد إلا في ضلوعي كامن ... ولا الجود إلا في يميني ثابرُ
فجيش العلى ما بين جنبيَّ جايلُ ... وبحرالندى ما بين كفَّيَّ زاخرُ

وتولى إشبيلية بعد محمد بن إسماعيل بن عباد ابنه عبَّاد، ولقب نفسه بالمعتضد بالله، تولى وعمره ستة عشر عاماً، وقال عنه ابن بسام في الذخيرة: «ثم أفضى الأمر على عباد ابنه سنة ثلاثة وثلاثون، وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد، قطب رحى الفتنة،

ومنتهى غاية المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولم يسلم منه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمور وهو متناقض، وأسد فرس الطلى وهو رابض، متهور تتحاماه الدهاة، وجبار لا تأمنه الكماة، متعسف اهتدى، ومُنْبَتُّ قطع فما أبقى، ثار والناس حرب، وكل شيء عليه إلب، فكفى أقرانه وهم غير واحد، وضبط شأنه بين قائم وقاعد، حتى طالت يده واتسع بلده، وكثر عديده وعُدَدَه، افتتح أمره بقتل وزير أبيه حبيب، طعنه في ثغر الأيام، مَلَكَ بها كفَّه، وجبَّار من جبابرة الأنام، شرَّد به من خلفه، فاستمر يفري ويخلق، وأخذ يجمع ويفرق، له في كل ناحية ميدان، وعلى كل رابية خِوَان، حربه سمٌّ لا يبطئ، وسهم لا يُخطئ، وسِلْمُه شرٌّ غير مأمون، ومتاع إلى أدنى حين».

أما ابن حيان المعاصر لبني عباد فقد كان مادحاً له مواربا عيوبه، ملتمساً له الأعذار، مُقلِّلا له الإعثار، فقال:

«أسد الملوك، وشهاب الفتنة، وداحض العار، ومدرك الأوتار، وذو الأنباء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة، والهمم العلية، والسطوة الأبية» إلى أن قال: «فلقد حمل عليه على مر الأيام في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود، والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنَّة، والإخفار للذمة، حكايات شنيعة لم يبد من أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول يتساغ في ذكرها، ومهما برئ من مغبتَّها، فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلَّه، لم يحاشى فيها ذوي رحم واشجة».

ويكفي أن أنقل للقارىء الكريم فظائع المعتضد التي لم يسبق لها مثل قط سوى ما كان من قبل محمد بن عبدالجبار الملقب بالمهدي.

فقد وضع المعتضد له حديقة كبيرة في قصره من رؤوس كبار أعدائه المسلمين، مزيناً بها قصر، ممتعاً بها عينه، جاعلاً في أعلى كل جمجمة اسم صاحبها المسلم!!!.

قال صاحب المقتبس في ذلك: «ومن نادر أخباره المتناهية الغرابة أن نال بغيته، وأهلك تلك الأمم العاتية، وإنه لغائب عن مشاهدتها، مُترَفِّهٌ عن مكابدتها، مدبِّر فوق أريكتها، منفد لحيلها من جوف قصره، ما إن مشى إلى عدو أو مغلوب من قتاله غير مرة أو مرتين، ثم لزم عريشته يدبر داخلها أموره، جرَّد نهاره لإبرام التدبير، وأخلص ليله لتملِّي

السرور، فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح، ويحيا عليها بقبض الأرواح، والتي لأناسيَّها من أعدائه بباب قصره حديقة تُطْلِعُ كل وقت ثمراً من رؤوسهم المهداة إليه، مقرطة الآذان برقاع الأسماء المنوه بحاملها، ترتاح نفسه لمعاينتها، والخلق يذعرون من التماحها، وهو واصل نعيم ليله بإحالة كبده، ومستدع نشاط لهوه بقوة أبده، له في كل شأن شُؤْبين، وعلى كل قلب سمع وعين، ما إن سَبرَ أحدٌ من دهاة رجاله غورَه، ولا أدرك قَعْره، ولا أمن مكره، لم يزل ذلك دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه».

وحديقة من رؤوس المسلمين كهذه قال عنها صاعد بن الحسين في حديقة الرؤوس التي أينعها محمد بن عبدالجبار الملقب بالمهدي:

جلاء العين مبهجة النفوس ... حدائق أطلعت ثمر الرؤوسِ
هناك الله مهدي المساعي ... جنى الهامات من تلك الغروسِ
فلم أر قبلها وحشاً جميلاً ... كريهُ رداِئه أنس الأنيسِ
فماذا يملأ الأسماع منها ... إذا مُلِئَت من ابناء الطروسِ

ولقد كان هناك ثلاثة رؤوس خصها بالصون، وبالغ في تطييبها وتنظيفها للثواء لا للكرامة، وأودعها المصاون الحافظة لها، فبقيت عنده ثاويه تجيب سائلها اعتباراً، وهي رؤوس أعدائه منهم: رأس الخليفة يحيى بن علي بن حمود، ورأس محمد البرزلي زعيم فرموته، ورؤوس الحجاب: ابن نوح وابن خزرون من رؤوس ليس بها رأس غير رأس مسلم، لتعطي دلالة واضحة على ما وصلت إليه عصور الطوائف من مآسٍ طالت الصغير والكبير، والرئيس والمرؤوس، والعامة والخاصة.

فيا لها من مآسٍ مضنية، وشواهد يقشعر منها البدن.

وكان ابن عباد قد أُعْطِيَ أيضاً من جمال الصورة، وتمام الخلقة، وفخامة الهيئة، وسباطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحس، ما فاق أيضاً به نظراءه، وكان كَلِفاً بالنساء، فاستوسع في اتخاذهنَّ وخلط في أجناسهنَّ، وقيل أنه خلَّف من صنوفهن السريات خاصة نحو من سبعين جارية، ومن فظائع ما فعله المعتضد في أعدائه أنه دعا عدداً من أمراء المناطق المجاورة له من المسلمين، فلبى دعوته ثلاثة منهم ومعهم

مئتي فارس، فاستقبلهم المعتضد أحسن استقبال، وأنزل الأمراء بقصر من قصوره، وفي اليوم الثالث استدعاهم إلى مجلسه وأخذ يؤنبهم على تقصيرهم في محاربة أعدائه، ولما همَّموا بالرد أمر بالقبض عليهم وتكبيلهم بالأغلال ووضعهم في السجن فرادى واستولى على سائر سلاحهم ومتاعهم وخيلهم، وبعد مدة من اعتقالهم، أمر بإدخالهم في الحمام وأضرم النار فيه حتى هلكوا.

وقد قام ابن عباد بإخضاع جميع الإمارات الصغيرة المجاورة له فامتد سلطانه وعلا شأنه، ودانت له الممالك، وكان في حروبه قاسياً، ظالماً، مستبداً، لا تخالج قلبه رحمة، ولا تنازعه خشية، ولا يستحضر خوف الله.

ومن إضافاته لمآسي الأندلس تلك المأساة التي سطرها التاريخ بقتله لابنه إسماعيل ولي عهده، كان قد ندبه إلى قرطبة فتمنع لِخلَّة يكرهها في أبيه، فألزمه أبوه المسير، فلجأ الابن إلى وزير والده محمد بن أحمد البزلياني، فأشار عليه بالسير خارج إشبيلية، فعزم أمره وجمع ماله وأخذ أمَّه وحرمه، وسار متخفياً في جنح الظلام، فعلم أبوه خبره فأرسل له الفرسان في أثره، فبلغ أحد الحصون واستجار بواليها فأجاره، وأرسل إلى أبيه قائلاً: أنَّ ابنك نادم على ما فعل وراجٍ العفو، فسُرَّ الأب، واستجاب الابن لدعوة أبيه، فاعتقله أبوه وردَّ المال.

ثم التفت إلى الوزير فأعدمه وأعدم خاصة إسماعيل فخشى إسماعيل على مصيره فدبَّر قتل أبيه بمساعدة أحد خصيان القصر، فعلم الأب المراد، فهو الساهر الحذر، الحريص الفطن، فأحضر ابنه وقتله بنفسه وأخفى جثته، وأعدم عددا من حرمه وقطَّع أطرافهنَّ، وأمر ابن عبدالبر بكتابة خطاب إلى رؤساء الأندلس لتبرير فعلته ومنها: «إنَّ الغَوِيَّ اللَّعين، العاقَّ الشاقَّ، إسماعيل ابني بالولاء لا بالوداد، ونجلي بالمنَاسِب لا بالمذاهب» إلى أن قال: «وقد تفتن الآباء بالأبناء، وينطوي عنهم ما ينطوون عليه من الأسواء، مع أنَّ الآراء قد تنشأ وتحدث، والنفوس قد تحبب وتخبث، بقرين يصلح أو يفسد، وخليط يغوي أو يرشد، كما أنَّ داء العرقد يعدي، كذلك قرين السوء قد يردي، ومن اتخذ الغاوي خدينا، عاد غاوياً ظنيناً، ومن يكن الشيطان له قريناً، فقد ساء قرينا» حتى أن قال: «فإذا بالحية لا تغني مداراتها، والعقرب لا تسالم شباتها».

والواقع أنه لم يكن السابق في هذه المضمار، فقد قتل الخليفة الناصر ولده، والحاجب المنصور بن أبي عامر فتك بابنه، وكل ذلك رغبة في الحكم وطمعا في السيادة دون مخافة من الله.

وهنا يجب أن ننظر إلى موقف هذا الجائر الظالم القاسي المستبد من ملك قشتالة فرناندو الأول، فما هو موقفه من هذه الأحداث؟

فقد كان هذا الملك يراقب الأحداث في الأندلس انتظاراً للانقضاض عندما تحين الفرصة المناسبة، فهاجم طليطله وعاث فيها فساداً فاضطر المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة مصالحته ودفع له الجزية، كما غزا بطليموس وإشبيلية، فاضطر المعتضد بن عباد دفع الجزية، فأصبح الأسد على المسلمين، فأراً عند ملك النصارى، وأصبح هذا المغامر الشجاع عند حربه إخوانه المسلمين، جباناً عند ملاقاة ملك قشتالة، وأضحى ذاك الذي يخشاه حكام الطوائف، أذلَّ الأذلاء عند ملك قشتالة.

هذه حال حكام الطوائف ومالكيها، حِرباً على أصدقائهم، سِلماً على أعدائهم، يملأ قلوبهم الرعب، حتى كانت الجزية تدفع لملك قشتالة دون قيد أو شرط ليتقوى بها على قتالهم.

فهل هناك مأساة أعظم من هذه المأساة ؟

توفي المعتضد بنوبة قلبية بعد موت إحدى بناته الأثيرة لديه بعد حكم دام نحو ثمانية وعشرين عاماً، وآل الأمر إلى ابنه، لتفتح صفحة أخرى مليئة بالأحداث الجسام.

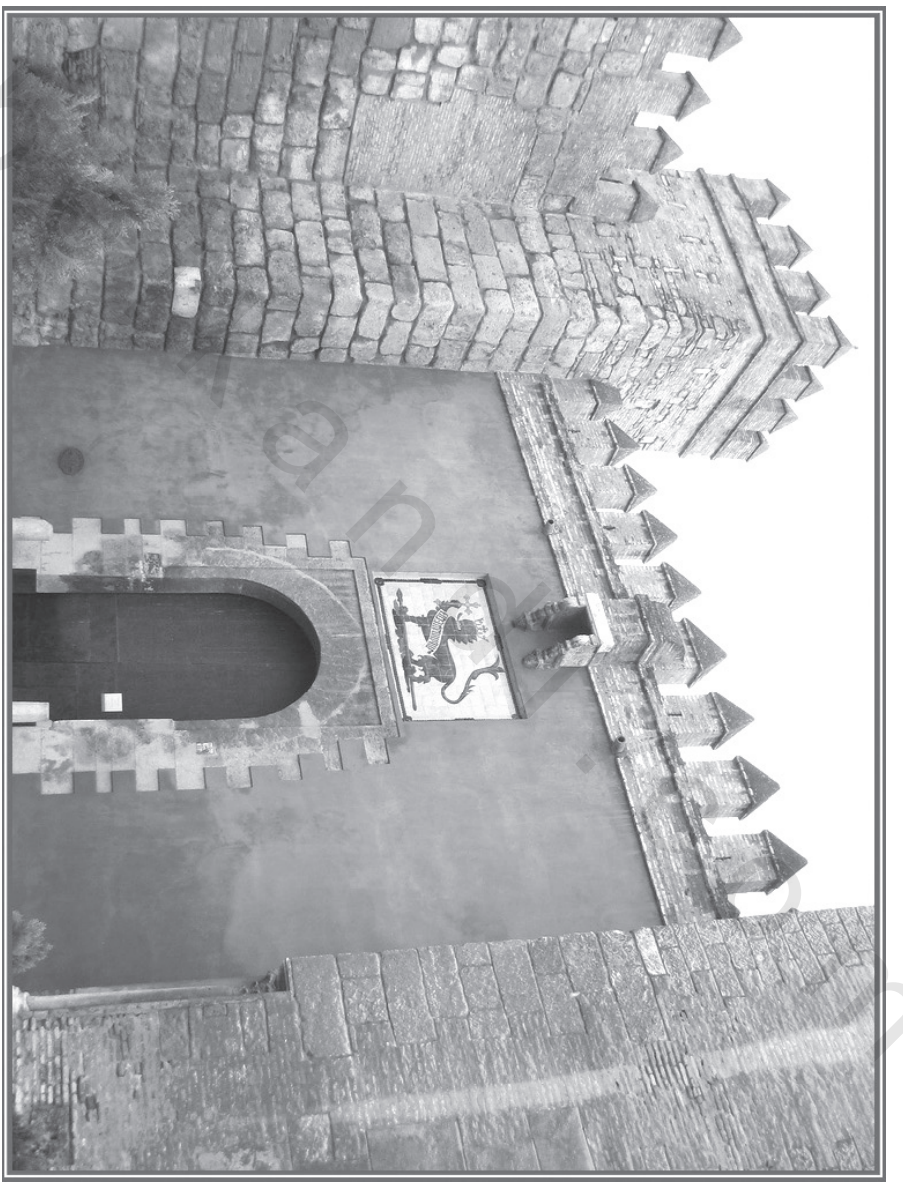

أحد قصور بني عباد بإشبيلية

obeikandl.com

المعتمد بن عباد

بعد وفاة المعتضد تولى الحكم ابنه المعتمد وهو محمد بن عباد، وكان عمره آنذاك نحو ثلاثين عاماً، كان جميل المظهر، حسن القوام، في عنفوان شبابه، وكان شاعراً أديباً، جمع حوله فحول الشعراء، وخيرة الأدباء، ويكفي أن نذكر الشاعر المبدع ابن زيدون، وكذلك ابن عبدون، وابن عمار، وغيرهم كثير.

قال ابن الأبار عنه: «وكان المعتمد من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل، مخالفاً لأبيه في القهر والسفك والأخذ بأدنى سعاية، رد جماعة ممن نفى أبوه، وسكَّن وما نفَّر، وأحسن السيرة، وملك فأسجح، إلاَّ أنه كان مولعاً بالخمر، منغمساً في اللذات، عاكفاً على البطالة، مخلداً إلى الراحة، فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه».

كان المعتمد والياً على مدينة شلب أيام حكم أبيه، وكان وزيره منذ صباه أبو بكر بن عمار ذائع الصيت شعراً وعلاقة خاصة مع المعتمد، وكانت له مجالس أنس ولهو وخمر ونساء في تلك المدينة.

لم يكن رجل حرب غير أنه استولى على قرطبة بحيلة احتالها، كما ذُكِر، وكانت له حرب مع حكام مملكة غرناطة من البربر الذين يكِنُّ لهم البغض كما كان آباؤه من قبل، واستولى على جُلِّها ولم يبق سوى العاصمة، ففكر حاكمها في ذلك الوقت باللجوء إلى الاستعانة بالفونسو ملك قشتالة، واتخذ المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة واسطته في ذلك، لخبرته في الخضوع للنصارى، ودفع الجزية الباهظة لهم مقابل احتفاظه بكرسي الحكم. وكان له ما أراد، وعلم المعتمد بذلك فسارع الاتصال بالفونسو، وتسابق الفارسان للخضوع والمذلة فكانت النصرة للمعتمد، واتفقا على أن تكون مدينة غرناطة بعد فتحها للمعتمد بينما الذخائر والأموال للفونسو، وكان الحية الرقطاء في ذلك ورسول المذلة هو الوزير أبو بكر بن عمار.

قال المراكشي: «ابن عمار هذا، هو محمد بن عمار، يكنى أبا بكر، أصله من شِلْب من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس، مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه حظ، ولا ذكر منهم بها أحد، ورد مدينة شِلْبَ طفلاً فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم: أبو الحجاج يوسف بن عيسى

الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر، فكان قُصَارَاه التكسب به، فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي مِمَّن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سُوقه وله في ذلك خبر ظريف:

وذلك أنه ورد في بعض سفراته شِلْبَ، لا يملك إلا دابة لا يجدُ عَلَفَها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له الإناء شعيراً ووجه بها إليه، فرآها ابن عمار من أَجَلِّ الصلات وأسنى الجوائز، ثم اتفق أنْ عَلَتْ حالُ ابن عمار وساعده الجَدُّ ونهض به البخت، وانتهى أمره أنْ ولاَّه المعتمد على الله مدينة شِلْبَ وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه، فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يُظهرها المعتمد على الله حين وُلِّيها أيام أبيه المعتضد بالله، فكان أول شيء سأل عنه، الرجل صاحبه صاحب الشعير، فقال: ما صنع فلان، أهو حيّ؟ قالوا نعم، فأرسل إليه بإنائه بعد أن ملأه دراهم، وقال لرسوله: قل له: لو ملأتها بُرَّاً لملأناها تِبْرَاً.

ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبو عمرو، فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها:

أدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجمُ قد صرف العنان عن السُّرَى
والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منا العنبرا
ملك إذا أزدحم الملوك بمورد ... ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الأكباد من قطر الندى ... وألذُّ في الأجفان من سنة الكرى
لا خلق أفرى من شفار حسامه ... إن كنت شبهَّتَ المواكب أسطرا
أيقنت أني من ذراه بجنة ... لما سقاني من نداه الكوثرا
وعلمت حقاً أن ربعي مُخصبٌ ... لما سألتُ به الغمام الممطرا
من لا توازنه الجبال إذا احتبى ... من لا تسابقه الرياح إذا جرى
ماض وصدرالرمح يُكهم والظبّا ... تنبو وأيدي الخيل تعثُر في البرى
قاد الكتائب كالكواكب فوقهم ... من لأمهم مثل السحاب كنهوَرَا
من كل أبيض قد تقلد أبيضا ... عضباً وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خلقُه أو خُلقه ... كالروض يحسن منظراً أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمتُه ... فرأيته في بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زُرتُه ... فقرأته في راحتيه مفسّرا
فاح الثرى متعطراً بثنائه ... حتى حسبنا كل تُرْب عنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد:

عــبّــادٌ المـخـضــرّ نــائــل كـفّـه   والجــوّ قــد لبس الــرداء الأغــبرا
قَــدّاح زَنِــدْ المَـجْـد لا يَـنْـفَـكّ عن   نــارِ الــوَغَــى إلا إلى نــارِ الـقِـرىَ
يـخـتـار أنْ يَـهَـب الخَـريـدةَ كاعِـبا   والـطِّـرْفَ اجـردَ والحُـسامَ مُجوهَرا

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر:

شـقـيـت بـسـيـفـك أمــةٌ لم تعـتـقـد   إلاَّ الـيـهـود وإن تـسـمــوا بــربـرا
أثـمـرت رُمحـك مـن رؤوس كُماتِهِم   لما رأيــت الـغـصـن يُـعـشَـقُ مثـمـرا
وخضبت سيفك مـن دمـاء نحورهم   لما عـهـدت الحسـن يُـلـبَـسُ أحـمـرا

وهذه دلالة على ما أصاب الأندلس من أحقاد وضغائن وقبلية زائفة أمر الإسلام بإزالتها فقال رسول الهدى ﷺ: «**دعوها فإنها مُنْتِنَة**».

ثــم تقوَّى إلى أن صــار ابن عمار ألزق بالمعتمد ابن المعتضــد وولي عهده من شــعرات قصه، وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار.

ثم اتفق أن وُلي المعتمد على الله شِلْبَ من قبل أبيه، فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية وسَلَّم إليه جميع أموره، فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة، وساءت السمعة عنهما لاتهامهما بعلاقة خاصــة، ولهذا اقتضــى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده، فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس إلى أن توفي المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه.

وله معه أيام كونهما بشِــلْبَ خــبر عجيب، وذلك أن المعتمد اســتدعاه ليلة إلى مجلس أنسه، على ما كانت العادة جارية به، إلاَّ أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبرَّ له على غير المعتاد، فلما جاء وقت النوم اقسم المعتمد عليه: لتضعن رأسك معي على وساد واحد! فكان ذلك.

قال ابن عمار: فهتف بي هاتف في النوم يقول: «لا تغتر أيها المســكين، إنه سيقتلك ولو بعد حين!» قال: فانتبهت من نومي فزعاً، وتعوذت، ثم عدت، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى، فانتبهت ثم عدت، فسمعته ثالثة، فاتنبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض

الحصر، وقصدت دهليز القصر مستخفياً به، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت، فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني، فأمر بطلبي، فطُلِبْتُ له في نواحي القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه، فكان هو الذي وقع علي، وذلك أنه أتى دهليز القصر يتفقد الباب هل فتح، فوقف بإزاء الحصير الذي كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي، وقال: ما هذا الذي يتحرك في هذا الحصير؟ ثم أمر به فنفض، فخرجت عرياناً ليس علي إلا السروايل! فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال: يا أبا بكر، مالذي حملك على هذا؟ فلم أر بُدّاً من أن صدقته، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها، فضحك وقال: يا أبا بكر، أضغاث أحلام، هذه آثار الخمر، ثم قال لي: وكيف أقتلك؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء، وتناسى الأمر فنسيه، ومرَّت على ذلك الأيام والليالي إلى أن كان من أمره ما سيأتي الإيماء إليه، فصدقت رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال!

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرنا، سأله ابن عمار ولاية شِلْب، وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أَنْبَهَ ولاية، جعل إليه جميع أمورها، خارجها وداخلها، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه فاستدعاه وعزله عنها واستقدمه إلى قرطبة واستوزره، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد.

ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة، واشتهر أمره ببلاده الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذكر عنده ابن عمار قال: هو رجل الجزيرة! وكان ابن عمار هو الذي رده عن إشبيلية وقرطبة وأعمالها، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها، فخافه الناس، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه، فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع لم يكن عند ملك مثلها، جعل صورها من الأبنوس والعود

الرطب والصندل وحلاها بالذهب، وجعل أرضها في غاية الإتقان، فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى الأدفنش فلقيه في أول بلاد المسلمين، فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ في إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة في حوائجه، فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأدفنش، فنقل خبرها إليه، وكان الأدفنش مولعاً بالشطرنج، فلما لقي ابن عمار سأله: كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية، فأخبره بمكانه منه، فقال له: بلغني أنَّ عندك سفرة في غاية الإتقان! قال ابن عمار: نعم، فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه: قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حُكْمي! فقال له الأدفنش: هلما لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها، فلما وُضعت بين يدي الأدفنش انبهر وقال: ما ظننت أنَّ إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد! ثم قال لابن عمار: كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الأدفنش: لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو، ولعله شيء لا يمكنني! فقال ابن عمار: لا ألعب إلا على هذا الوجه ! وأمر بالسفرة فطويت، وكشف ابن عمار سِرَّ ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش، وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره، ففعلوا، فتعلقت نفس الأدفنش بالسفرة، وشاور خاصته فيما قاله ابن عمار، فهوَّنوا عليه وقالوا له: إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابن عمار ما لا يمكن فنحن أحق بردِّه عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاءه ومعه السفرة، فقال له: قد قبلت ما اقترحته ! فقال ابن عمار: فاجعل بيني وبينك شهوداً أسماهم له، فأمر الأدفنش بهم فحضروا، وافتتحا يلعبان، وكان ابن عمار بارعاً في الشطرنج، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للأدفنش فيها مطعن، فلما حقت الغلبة قال ابن عمار: هل صح أن لي حكمي؟ قال: نعم، فما هو؟ قال: أن ترجع من ههنا إلى بلادك ! فاسْودَّ وجه العلج وقام وقعد وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي! في أمثال هذا القول، وهمَّ بالنكث والتمادي لوجهه، فقبحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك! فلم يزالوا به حتى سكن، وقال: لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة!

فقال ابن عمار: هذا كله لك! وجاء بما أراد، فرجع وكفى الله بأسه، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به.

هذه أحوال الأندلس، ملك قشتالة يسومهم الذلَّ والمهانة، وهم يرجئون قضاءه عليهم من خلال لعبة شطرنج ليبقى المعتمد ومن معه من حاشيته في خمر ولهو، أمَّا أهل الأندلس فهم في خوف دائم، والضرائب تؤخذ منهم لدفعها للجاثم على رقابهم في شمال الأندلس، لتستمر المآسي بصنوف مختلفة.

ثم إنَّ المعتمد حدث له أمل في التغلب على مُرسِية وأعمالها وهي التي تُعرف بتُدْمير، وكانت بيد أبي عبدالرحمن محمد بن طاهر، كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها، فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة، فتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، فولاه ما تولى من ذلك، وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسيه، فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبدالعزيز ببلنسية، فكان بها إلى أن مات رحمه الله.

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار مُلْكِ بني طاهر، حدثته نفسه وسوَّل له سوء رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه، فلم يزل يصرِّف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها وطمع في ملك بلنسية، إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له: ابن رشيق، كان أبوه من عُرَفاء الجند بها، خرج ابن عمار يوما لبعض أموره، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند، فسمع ابن عمار بذلك، فجاء يركض حتى أتى المدينة وقد غُلِّقت أبوابها دونه، فحاصرها بمن معه أياماً، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها، فبقي حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه، وكان قد بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته، فلم ير إلا الهروب ملجأً، فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته، وبغَّضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولي نعمته، فأخرجوه عن بلادهم.

ولم تزل البلاد تتقاذفه، وملوكها تشنؤه، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة، كان المتغلب عليه رجل يقال له: ابن مبارك، فأكرم وفادته

وأحسن نزله، ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه، فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له: لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم، فما منهم إلا من يرغب في، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالاً ووجهت بي إليه ! ففعل ابن مبارك ذلك، فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه وكتب فيمن كتب إلى المعتمد.

وفي ذلك يقول ابن عمار:

أصبحت في السوق ينادى على رأسي بأنواع من المال
والله ما جار على ماله من ضمني بالثمن الغالي

وبعث المعتمد من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ووافق ذلك كون المعتمد بها، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه، على بغل بين عدلي تِبْن، وقيوده ظاهرة للناس، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال، وكان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام، وغيرهم لا يصل إلاَّ إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه، فسبحان محيل الأحوال ومُديل الدول!

فدخل ابن عمار قرطبة بعد العزة القعساء، والمُلك الشامخ، والرياسة الفارعة، ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه، فسبحان من سلبه ما وهبه، ومنعه ما كان به أمتعه.

فأُدخل على المعتمد يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه، وابن عمار في ذلك كله مطرق لا ينبس، إلى أن انقضى كلام المعتمد، فكان من جواب ابن عمار أن قال: ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله، ولو أنكرته لشهدت علي به الجمادات فضلاً عمن ينطق، ولكن عَثَرتُ فأقِل، وزَلَلْتُ فاصفح! فقال المعتمد: هيهات، إنها عثرة لا تقال! وأمر به فأحدر في النهر إلى إشبيلية، فدُخل به إشبيلية على الحال التي دخل بها قرطبة، وجُعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك فطال سجنه هناك.

كتب له وهو في السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره، أو إلى الفلك لكف عن دوره، فكانت رقّى لم تنجع، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تنفع.

فأدركت المعتمد بعض الرقة، فوجه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه، فأتى به يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قِبله، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء، وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد، فتم له بعض ما أراد من ذلك، وعطفت المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته، فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً لا صريحاً وأمر برده إلى محبسه. فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى الراضي بالله ابن المعتمد، فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحنٌ قديمة، فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم: ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص، فقالوا له: ومن أين علم مولانا ذلك؟ فقال: هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أنَّ مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص، فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره، فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر، وزادوا فيه زيادات قبيحة، فبلغ المعتمد ذلك، فأرسل إلى ابن عمار وقال له: هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار، فقال المعتمد للرسول: قل له: الورقتان اللتان استدعيتهما، كتبت في إحداهما القصيدة،فما فعلت بالأخرى؟ فادعى أنه بيض فيها القصيدة، فقال المعتمد: هَلمَّ المسودة! فلم يجد جواباً، فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار، فلما رآه علم أنه قاتله، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله، حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما، والمعتمد لا يثنيه شيء، فعلاه بالطبرزين الذي في يده، ولم يزل يضربه به حتى مات.

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك.

وعلينا أن نذكر أنَّ ألَّد أعداء ابن عمار هو الوزير أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر أبي الوليد ابن زيدون المشهور، وكذلك زوجة المعتمد الرميكية الأثيرة لديه التي أنجبت له عددا من الأبناء، وكان قد اشتراها المعتمد من مولاها رميك فأحبها حباً لم يقع في قلبه له مثيل، وكانت تشترك في مجالس الشعر مع زوجها، وكان ابن عمار وهو في قمة مجده

يحقد عليها ويراها منافسة له على قلب المعتمد، ودام الصراع بينهما خفية وجهراً، فكانت الغلبة للرميكية زوجة المعتمد، وهذا أمر طبيعي فالشاعر يقول:

ليس الشفيع الذي يأتيك مُتَّزرا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

ويقال أنه قال قصيدة عندما كان في مرسية بعيداً عن المعتمد مخاطباً له، هاجياً زوجته الرميكية:

تخيرتها من بنات الهجين رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكلّ قصير العذار لئيم النَّجَادين عماً وخالا
قصار القدود ولكنَّهم أقاموا علينا قروناً طوالا

وعلق ابن الخطيب على قتل المعتمد ابن عباد فقال: «فسبحان الذي جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد في أزمة حب التشفي وطلب الإنصاف، فلا تتوقف في مطاوعته، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات، ولا مرغمة بفراق الشهوات، إلا القليل النادر، ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة في أصل جبلَّتها، فهي ساكنة الفورة».

وواصل المعتمد سيرة أبيه المعتضد بدفع الجزية لألفونسو من خلال وفد يتم إرساله كل عام لجباية المال، وكان يرى أن توثيق العلاقة مع ألفونسو تضمن استمرار حكمه المليء بالملذات وجلسات الخمر والنساء، حتى قالت بعض المصادر أنه قدم إلى الفونسو إحدى بناته لتكون زوجة له، وهذا أمر مستبعد في نظري.

في الفترة التي كان فيها المعتمد بن عباد مشغولاً بما هو عليه من ملذات، كانت حبوب العقد في الشمال تتساقط شيئاً فشيئاً، والحصون والمدن تستباح يوماً بعد يوم. وكان بنو ذي النون في طليطلة جرثومة النفاق كما وصفهم ابن حيان يدفعون الجزية لعدوهم ويتآمرون معه لقتل إخوانهم، وقد قال ابن حيان عن مؤسس دولتهم إسماعيل بن ذي النون: «ولم يرغب في صنيعه، ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد بمعروف، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل، ولا حظي أحد منه بطائل، وكان مع ذلك سعيد الجَدّ، تنقاد إليه دنياه، وتصحبه سعادته، فينال صعاب الأمور بأهون سعيه، وهو كان فرط الملوك في إيثار الفرقة، فاقتدى به من بعده، وأمّوا في الخلافة نهجه، فصار جرثومة النفاق، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن».

ولم يدم عهد إسماعيل طويلاً حيث توفي وقام بعده ابنه يحيى بن إسماعيل ولقب نفسه بالمأمون، ودام عهده ثلاثة وثلاثون عاماً. فكانت بينه وبين ابن هود حاكم سرقسطة حروب فاوض خلالها فرناندو لمحاربة ابن هود فوافق مغتبطاً واشترط أن يؤدي له الجزية، لكنَّ ابن هود لجأ إلى فرناندو يستعطفه لنصرته ضد ابن ذي النون، فوافق في مسرحية هزلية أبطالها حكام الطوائف ومخرجها فرناندو وأبناؤه من بعده.

وبعد وفاة يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون تولى حكم طليطلة بعده حفيده الملقب بالقادر وسار على درب أبيه وجده في الخضوع والركون إلى الذّلة والمهانة، وهادنه الفونسو ملك قشتاله أعواماً، ثم ما لبث أن قرر الفونسو الاستيلاء على طليطلة، فحاصرها لمدة تسعة أشهر على مرأى ومسمع من حكام الطوائف الذين لم تدفعهم نخوتهم إلى نصرة أخوانهم، بل كانوا يرتجفون رعباً من الشر القادم الذي لا محالة كائن، فهم أعجز من أن ينصروا دويلاتهم فكيف بنصرة أخيهم، ويمكننا استثناء ابن الأفطس الذي حارب بجانب القادر مترفعاً عن المحن السابقة، والعداوات القائمة، وأرسل العلامة أبا الوليد الباجي لحكام الطوائف يستنصرهم في فك الحصار والذوذ عن الإسلام، فما عثر على مجيب، ولا وجد ناصراً، فسلمت المدينة بعد أن حلَّ بأهلها الجوع والعطش، واشترط القادر لنفسه الخلاص مع حرمه وماله فكان له ما أراد وذهب إلى بلنسية ثم لجأ إلى أحد ملوك النصارى أذفنش فقال في ذلك ابن بسام: «وخرج ابن ذي النون خائباً مما تمناه، شرقاً بعقبي ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، والسماء تود لو لم تطلع نجماً إلا كدرته عليه حتفاً مبيداً. ولم تنشىء عارضاً إلا مطرته فيه عذاباً شديداً، واستقر بمحلة إذفنتش، مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونه حرمة ستر ولا حجاب».

وقال ابن الخطيب فيه وفي أهل طليطلة: «واقتضاه الطاغية الوهد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستؤصلت الرمم، ونفذ عقاب الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومتعودي العقوق، ومقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمثل السائر في الآفاق».

وتسابق الشعراء في رثاء طليطله فأكثروا وقال أحدهم:

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيَّات في سقط

كان ابن عباد يراقب الأحداث ويعلم أن مآله إلى السقوط أسوة بابن ذي النون لكنه استمر في المصانعة لعل وعسى أن يكون فيها استمالة قلب، وردع معتدي، وكفاية عن شر، لكن أنَّى له ذلك، وعلام لا يعدُّ العدة قبل وقوع المصيبة وهو يعلم أنَّ الدائرة عليه قادمة لا محاله.

وقد وقع ما خشيه المعتمد، ذلك أن الفونسو ملك قشتالة أرسل رجاله كعادته لأخذ الجزية من المعتمد، وكان رئيس رجال الفونسو رجل يهودي يدعى: ابن شاليب، فلما رأى المال والسبائك رفضها مدعياً أنها مغشوشة وطلب إبدالها بما هو أكرم منها، ويبدو أنه أغلظ في الكلام وهدد باجتياح إشبيلية إذا لم يتم الدفع على الوجه الذي يريده، فغضب المعتمد وأرسل لهم من قبض عليهم، وأمر بابن شاليب فقتل وصلب ثم سجن باقي الوفد، ويبدو أن المعتمد قد وصل إلى حد لم يطقه، وحُمِّل حِمْلاً من الذُلِّ لم يستحمله، وتفاوض مع الفونسو على إطلاق سراحهم، وكان الفونسو قد عزم على غزو إشبيلية وإنهاء حكم آل عباد وربما جميع الوجود الإسلامي في أسبانيا بعد أن كان المال الذي ظل يجمعه من هذه الدويلات وقودا أراد أن يحرقهم به بعد أن حان الأجل.

وجمع ألفونسو جيشاً جراراً لا قبل لدويلات اللهو والملذات به، وعلموا أنَّ وقت دفع الثمن قد حان وأنَّ عليهم النظر في الأمر قبل وقوع المكروه، واجتمع أمر معظم رؤساء الدويلات على إرسال رسلهم إلى يوسف بن تاشفين القاطن في مراكش للاستنجاد به وإنقاذهم من الخطب الذي حلَّ بهم.

وكانت هناك رسالتان متبادلتان بين الفونسو والمعتمد بهذا الخصوص يظهر فيها أنَّ الفونسو يسمى نفسه ملك الملتين، فقال الفونسو في رسالته: «من الإنبيطور ذى الملتين، الملك المفضل، أذفنش بن شانجه، إلى المعتمد بالله، سدد الله آراءه وبصَّرَه مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى، ونبتت في ربعه المنى، باغترار الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم بطليطله نزال أقطارها، وما حاق بأهلها

حين حصارها، فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو وراوده، لكنَّ الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشي الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليك القرمط ألبر هانس، وعنده من التسديد الذي تلقى بأمثالك، والعقل الذي تدبر بلادك به ورجالك مما أوجب استنباته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك».

فأجاب المعتمد على رسالة ملك النصارى بالرسالة الآتية: «من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبي عمر ابن عباد، إلى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجه الذي لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذي الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإن أول ما يبدأ من دعواه أنه ذو الملتين والمسلمون أحق بهذا الإسم، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد وعظيم الاستعداد ومجبي الملَّة، لا تبلغه قدرتكم ولا تعرفه ملتكم، وإنما كانت سنة سعد، أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة، قلت في أثنائها لبس، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك برأي لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، وتعلم أنَّ في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان يوم تلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم إلى حد الشفار، وينعاهم المنام في القفار، يريدون رحى النون بحركات العزائ، ويشفون من خيط الحنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الإنفاق، وشفاراً حداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروة، نبهت من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين

مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره، وتتحقق مثاره، والذي جرأك على طلب ما لاتدركه قوم كالحمر، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك، ولا نستبطىء في مسيرنا إليك، والله ينصر دينه، والسلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدعه».

obeikandl.com

لعبة الشـــطرنج: اسـتخدم ابن عمـار وزير المعتمـد الشـطرنج لرد حاكم قشتالة عن الوصول إلى أشبيلية في قصة طريفة.